

الأمين العام السابق للجنة تقصي الحقائق في جرائم حرب البوسنة توكاشا لـ «السفير»: هناك جرائم حرب لا تشمل بأي قانون عفو

المتحدة ومجلس الامن وملاحقة مجرمي الحرب «الذين لا يجب ان يشملهم أي عفو عام» كما قال لـ «السفير»، وبالتالي إنصاف الضحايا «عبر الإصغاء اليهم والسماح لهم بالتعبير في بيئة آمنة» وإحقاق العدالة التي يعتبرها توكاشا شرطاً للمصالحة و«المضي نحو المستقبل».

لا يستطيع الرجل الستيني ذو الملامح السلافية والذي لا يتحدث العربية، أن ينأى ببصره عن الميالية التي تعلقها محدثته والتي تمثل كلمة «الله» مكتوبة بخط عربي قديم. تفضح تلك النظرة «علاقة بصرية» بالقرآن، شأن عادة الشعوب المسلمة غير العربية. تتذكر أن الدين كان وجهاً أساسياً من وجوه حرب البوسنة. يؤرجح الباحث البوسني البتسم بعيونه الزرق رأسه يمنة ويسرة نائفاً بشكل حازم ولكن هادئ، ما كنا نسأله عنه، أي إمكانية وجود نوع من «خارطة طريق» للعمل على موضوع الذاكرة والمصالحة ما بعد الحروب.

بغبار العنوض هو أداة سهلة بأيدي من يريد أن يزيّف التاريخ وأن يتلاعب بالماضي. نظام ميلوسوفيتش استخدم على سبيل المثال أرقاماً خاطئة من الحرب العالمية الثانية عن مجازر ضد الصرب: قال إن سبعمئة ألف صربي قتلوا آنذاك. لا انفي تلك المجازر، مع أن لجناً محايدة قالت إن العدد لا يتجاوز ١٧ ألفاً، الموضوع ليس لعبة أرقام. ما أقوله إن ميلوسوفيتش استخدم وقائع غامضة من أجل التلاعب بالصربيين واستخدامهم ضد جيرانهم، لإخافتهم وإشعارهم بأنه يحميهم. في الحرب العالمية الثانية قتل كروات ويوسنيون الخ... في البوسنة أيضاً أعترضنا مشكلة تقدير عدد القتلى قليلاً عبر القول إنهم ١٠ أو ٢٠ ألفاً، أو تضخيماً بالقول بمئتين أو ثلاثمئة ألف. وفي النهاية، اقتربنا اليوم من الحقيقة لأننا وضعنا قائمة فعلية بالأسماء، ونحن نتقرب من المرحلة النهائية».

وحين نسأله عن محصلة عدد القتلى، يقول «حتى اللحظة لدينا ١٠٥ آلاف اسم. نتوقع المزيد. لكن، بانتظار ذلك، يمكنني ان أثبت لك كل اسم موجود لدينا».

وماذا عن الشفافية؟ يقول برفض حصرية المعلومات. «علينا تعميم معلوماتنا على أكبر عدد ممكن من الناس وإشراك الجمهور بكافة مراحل العملية».

وعن أسماء شهداء العيان؟ يقول «حمايتهم واجبة بالطبع، كما أنه في بعض الأحيان يجب حماية أسماء الجرمين قبل ان تثبت إدانتهم. في قاعدة معلوماتنا هناك ما يقارب ٢٥ ألف اسم ممن اشتركوا كمقاتلين في مختلف الميليشيات. وبالتأكيد هناك الكثير من الأبرياء بينهم. لذلك يجب إحاطة اسمائهم بالكتمان. لكن لا شك أن هناك ما لا يقل عن خمسة آلاف كانوا متورطين، وبكل بساطة يجب سوقهم الى العدالة بعد التحقق من حالاتهم. وعندما فقط يمكن فتح ملفاتهم أمام الجمهور».

ضحى شمس



توكاشا يتحدث لـ «السفير»

بحاجة الى مؤسسات لتطهير مؤسسات الدولة، ليس فقط من مجرمي الحرب بل أيضاً ممن خرقوا حقوق الإنسان، من الذي ضغط للتهجير؟ من قام بالتعذيب؟

نحن مثلاً، يتابع توكاشا، وجدنا احد قدامى المعتصمين خلال الحرب وقد أصبح شرطياً. أوقفناه وتمت مواجهته بالضحايا والشهود. وهو الآن أمام المحكمة الخاصة بجرائم الحرب. هذا ما يجب أن يكون. يجب ان يكون هناك نظام قادر على حماية الضحايا ومنع تكرار ما حصل لهم في المستقبل عبر إعطاء الأمثلة للمجرمين. اعلم ان لبلدكم مكونات متنوعة وليس بالإمكان إقامة وطن لكل فريق. وبالتالي عليكم العيش مع بعضكم. لكن هذا مستحيل من دون إحقاق العدالة... العدالة هي رسالة قوية للضحايا تقول لهم إن ما حصل معهم لن يتكرر. والحقيقة اساسية في ذلك. الماضي المغطى

في إطار النشاطات التي تقوم بها جمعية «أمم للتوثيق والأبحاث» حول الذاكرة الجماعية وجرائم الحرب، وتحت عنوان «سربونيتشا الجريمة والعقاب» على اسم الجزيرة الشهيرة التي أرتكبت أثناء حرب البوسنة، وبدعم من مكتب الشرق الأوسط في منظمة «هينريخ بل» التابعة لحزب الخضر الألماني، ألقى الباحث البوسني مرصاد توكاشا السبت المنصرم محاضرة حول «الحقيقة والعدالة في التعامل مع الماضي، التجربة البوسنية مثلاً»، وذلك في مقر «أمم» في حارة حريك.

«السفير» التقت الرجل الذي أسس وترأس مركز «سراييفو للأبحاث والتوثيق» بين العامين ١٩٩٢ و٢٠٠٣، والذي شغل منصب الأمين العام للجنة تقصي الحقائق في جرائم الحرب وكان مكلفاً من الرئيس البوسني بتكوين قاعدة معلومات عن جرائم الحرب منذ بدايتها في البوسنة عام ١٩٩٢، الأمر الذي لعب دوراً أساسياً في مساعدة لجان تقصي الحقائق العينية من قبل الأمم

شريف بسبوني تجميع المعلومات عن جرائم الحرب التي ارتكبت في البوسنة».

«بعد الحرب -يقول توكاشا- كان الأمر أسهل. وبالتالي استطعنا تغطية كل الأراضي البوسنية. وكان واضحاً أننا لا نحتاج فقط لأجهزة مؤقتة بل لمؤسسات ثابتة. لا يهم إن كان هذا العمل سينتهي يوماً، ففي السنتين المقبلتين سوف تنهي المحكمة الخاصة بيوغسلافيا مهمتها. لكننا نحتاج الى مؤسسة الذاكرة وبالتالي الى متحف دائم تعود اليه. وعملنا هو تهيئة لهذا المتحف».

ويتابع توكاشا «على كل بلد ان يطوّر أسلوبه الخاص. ومع ذلك بإمكانكم الاستفادة من تجربتنا. وخصوصاً لناحية التنظيم والمنهجية. أنا أيضاً تعلمت من تجارب شعوب أخرى من الأميركيين والنمساويين والألمان. لكن علينا أن نقوم بنحت نموذجنا الخاص. هذا ما أقوله لزوارنا من الشيشان أو من رواندا مثلاً».

ويعلق على ما سمعه خلال الندوة من مداخلات حول التجربة اللبنانية «فهمت انه ليس لديكم مؤسسات للذاكرة وبالتالي تعاملكم مع الماضي عشوائي وانتقائي وارتجالي، وهذا شيء خطير. إنه انطباعي الأول. ثانياً، إن قانون العفو عنكم قام بإهالة تراب كثير على ما حصل. وهذا فظيخ وغير صحي. لم يميز قانون العفو بين الضحايا والجرمين، هناك جرائم ضد الإنسانية لا يمكن شمولها بأي قانون عفو، وهذا معنى كلمة «ضد الإنسانية». في البوسنة أصدرنا قانون عفو، لكنه لا يشمل مرتكبي جرائم الحرب. لقد ذهلت لدى اطلاعي على قانون العفو في بلادكم: لا يجب ان يكون مقبولاً أن يتمكن مجرمو الحرب من الإفلات من العقاب. كيف يمكن لمن يقتل النساء والأطفال وأسرى الحرب، ليس فقط الإفلات من العقاب، بل احتلال مناصب سياسية؟ هناك مجرمو حرب يعملون في القوى الأمنية عندهم! مجرمون صاروا يمثلون الشعب اللبناني في البرلمان. إنه أمر مذهل! انتم

يتحدث الباحث البوسني مرصاد توكاشا عن الفارق بين الحرب الأهلية اللبنانية وحرب البوسنة بقوله «كنا (الصرب والكروات) بلدًا واحدًا هو يوغسلافيا السابقة، لكن، في اللحظة التي بدأت فيها الحرب، كانت البوسنة بلدًا مستقلاً. بما يعنيه ذلك من حماية تؤمنها الوثائق الدولية وحق مشروع في الدفاع عن أنفسنا تجاه الغزاة والمعتدين». ومع أن الفارق كبير بين الحربين، إلا أن توكاشا يظن «أن التجربة البوسنية غنية جداً لأي بلد يريد التعامل مع ميراث الحرب عنده». يضيف «عمر تجربتنا ١٤ عاماً، فقد بدأنا مباشرة بعد بداية الحرب عام ١٩٩٢».

لكن، كيف كان القرار بالبدء؟ يرد الرجل إن «الرئاسة في بوسنيا هيرتزوغويفينا كانت من قرر إنشاء لجنة تقصي جرائم الحرب. وهكذا بدأنا بالتجميع: محاضر، وأوامر عسكرية، صور، وثائق من كل الأشكال، فيديو... وكل ما كان يصل إلى أيدينا».

وهل كان كل ذلك يصلكم بسهولة؟ يرد «بل في غاية الصعوبة، كنا نعمل خلال الحرب، ولم يكن الانتقال بحرية ممكناً. كما أن الاتصالات كانت مقطوعة، والقتال كان شرساً... لكن كان هناك الكثير من الشهود. كانوا يأتون من تلقاء أنفسهم ليخبرونا بما حصل، هكذا تجمعت عندها آلاف الروايات لشهود عيان، وكان ذلك شيئاً مفيداً للغاية: ففي المقام الأول عرفنا ما الذي كان يحصل على وجه أقرب الى الدقة، وثانياً أستطعنا تجميع كمية كبيرة من أسماء المشتبه بهم، ومن أسماء الخونة (!!!)... وببساطة أصبح لدينا نواة قاعدة معلومات».

يضيف «بعد انتهاء الحرب، وعندما أصبحت الظروف ملائمة، اتاح لنا هذا العمل، التدقيق في الأحداث والمقارنة بين الروايات وبناء قضايا كاملة من أجل المحاسبة والمصالحة... الخ. ومن ناحية أخرى، استطعنا تسهيل عمل المؤسسات الدولية من نوع اللجان الخاصة التي أنشأتها الأمم المتحدة وخاصة لجنة تقصي الحقائق التي كلفها مجلس الأمن برئاسة المصري